الخطاب الدّيني في رواية "ابنة سوسلوف" مقاربة في النّقد السّوسيولوجي وسيميائيّة الخطاب

د. سلمى عطاالله

جامعة سيّدة اللّويزة، لبنان

الرّواية، بعامّة، هي نصّ نثريّ تخيّليّ سرديّ واقعيّ غالبًا، يدور حول شخصيّات متورّطة في حدث مهمّ، وهي تمثيل للحياة والتّجربة واكتساب المعرفة. وهي تتفاعل وتنمو وتحقّق وظائفها من خلال شبكة تسمّى الشّخصيّة الرّوائيّة. فالرّواية تصوّر الشّخصيّات ووظائفها داخل النّصّ وعلاقاتها فيما بينها، وسعيها إلى غايتها، ونجاحها أو إخفاقها في السّعي.[1] أمّا "باختين" (Mikhail Bakhtin) فيعتبرها مستودعًا مفتوحًا يمتصّ خبرات العالم ويختزنها، هذا العالم المؤلّف من ذكريات واختبارات وأصوات عُبّر عنها بكلمات وملفوظات وخطابات.[2] فيما "زيما" (Pierre Zima) يعرّفها بأنّها "مجموعة من البنى الدّلاليّة التّركيبيّة والسّرديّة الّتي تتفاعل مع القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة على مستوى اللّغة"[3] انطلاقًا من مقولته: "للأدب وظيفة لفظيّة بالنّسبة إلى الحياة الاجتماعيّة."[4]

والخطاب هو "نصّ الرّواية"[5]، أو "النّصّ منظورًا إليه في سياقه خصوصًا الاجتماعيّ".[6] هو "فعل متأصّل في موقف"[7]... يعرّفه "زيما"، انطلاقًا من "غريماس" (A. J. Greimas) و"كورتيز" (J. Courtés)، جامعًا فيه الاجتماعيّ والسّرديّ، بقوله إنّه "وحدة فوق جمليّة (تتعدّى الجملة)، تولد من لغة جماعيّة، وتعتبر بنيتها الدّلاليّة العميقة جزءًا من شيفرة وصادرة من سوسيولكتة، يمكن تمثيل مسارها التّركيبيّ بوساطة نموذج عامليّ/ سرديّ..."[8] لذا، فمقاربته تحتاج إلى كفايات لسانيّة وغير لسانيّة لكونه يتّكئ على اللّغة ويتعدّاها إلى الحياة. وقد تأسّس عمل "زيما" المركّز على المستوى اللّغويّ على التّوجّه نحو نظريّة الخطا ب[9] فيما أنواع الخطاب تتنوّع، بين السّياسيّ والاجتماعيّ والتّاريخيّ والفلسفيّ والدّينيّ...

وقد قام جوهر نظريّة "زيما" على ربط الأدبيّ بسياقه الاجتماعيّ، على مستوى الكلام.[10] ومن الواضح أنّ في موقف كهذا تكون بعض السوسيو لكتات والخطابات أكثر أهمّيّة من غيرها بالنّسبة إلى بنية رواية ما.[11] وفي رواية "ابنة سوسلوف" للرّوائيّ اليمنيّ "حبيب عبد الرّبّ سروري"، بدا الخطاب الدّينيّ هو الخطاب الرّئيس. فكيف تمظهر هذا الخطاب في هذه الرّواية؟ وكيف تجسّدت القضايا والمصالح الجماعيّة المتمحورة حول هذا الخطاب في المستويات المعجميّة والدّلاليّة والتّركيبيّة أو السّرديّة لنصّ الرّواية هذه؟ بكلام آخر، كيف سنتمكّن من وصف "وضع اجتماعيّ- لغويّ" لزمن محدّد من تاريخ اليمن؟

أسئلة سوف نجيب عنها في هذه المقاربة الّتي اعتمدنا فيها المنهج السيميائي السّوسيولوجيّ. والسّيميائيّة علم يحلّل مؤلّفات القصّة وإواليتها وتهتم بمضمون الحكاية، بما يرويه النّصّ وبتشكّلاته العميقة[12] وهي إذا كانت تقوم على البحث عن إنتاج المعنى فإنّ مبدأها التّحليليّ يقوم على تدريج هذا التّحليل من المستوى الأكثر حسّيّة إلى المستوى الأكثر تجريديّة، أي أن نتعاطى مع المستوى (الأوّل) التّصويريّ الحسيّ (= البنية السّطحيّة) (Niveau Figurative) بوصفه دالًّا يطابقه مدلول نكتشفه في المستوى (الثالث) الموضوعاتيّ التّجريديّ (= البنية العميقة) (Niveau Thematique) يتوسّط هذين المستويين

المستوى (الثّاني) السّرديّ (Niveau Narrative) الّذي ينجز فيه التّحليل العامليّ والممثّليّ.[13] ذلك من خلال معاينة كيفيّة تفاعل النّصّ الرّوائي مع المشكلات الاجتماعيّة والتّاريخيّة على مستوى اللّغة، والّتي تعتبر نقطة البداية لعلم اجتماع النّصّ.[14] و "زيما" يقترح، في هذا الإطار، "وصف البنى الخطابيّة الأدبيّة على مستوى اللّغة، البنية الوسيطة الّتي تقع بين النّصّ والمجتمع، والّذي هو نفسه نظام من الإشارات اللّغويّة وغير اللّغويّة"[15].

أوّلًا: في المستوى المعجميّ.

إنّ المصالح الجماعيّة تتجسّد بأوضح صورة في اللّغة على المستوى الدّلاليّ المعجميّ[16]، و "زيما" يرى إلى المجتمع بوصفه مجموع جماعات متخاصمة بشكل ما، يمكن للغاتها الجماعيّة (السّوسيولكتات) أن تدخل في نزاع في ما بينها[17]. لأنّ كلّ ملفوظ هو جزء من حوار بين جماعات قد تتصارع مصالحها ورؤاها[18]، ما يجعل الكلمات تحمل معنى إيديولوجيًّا[19]، فتتحوّل اللّهجة الجماعيّة إلى فهرست معجميّ له شيفرة أي مبنيّ بحسب قوانين التصاق جماعيّ خاصّة[20]. ويتمثّل البعد المعجميّ في السّوسيولكتة بكلمات ذات دلالة خاصّة تسمح على المستوى التّجريبيّ بمعرفة نوع السّوسيولكتة[21]. ما يوجب "وضع النّصّ الأدبيّ في وضع لغويّ اجتماعيّ خاصّ كما عاشه كاتبه وجماعته الاجتماعيّة"[22] وفي رواية "ابنة سوسلوف"، يلفتنا ورود فئتين من السّوسيولكتات ترهصان بصراع إيديولوجيّ يجعلنا أمام لغة محدّدة لفترة زمنيّة معيّنة من تاريخ اليمن، بدءًا من السّبعينات وصولًا إلى زمن ما سمّي بالرّبيع العربيّ: سوسيولكتة السّلفيّة الدّينيّة وسوسيولكتة العلمانيّة. وبالتّالي، ورود حقلين معجميّين متناقضين لكلّ منهما، يضمّان مفردات ومركّبات جمليّة خاصة بكل فئة، تحوّلت فيهما الكلمات من عناصر تابعة لتركيب الجملة إلى عناصر رئيسة[23] تشرح وجهة نظر هاتين المجموعتين وتدافع عنها. وقد ألحّ "ميشيل بيشو" (Michel Picho)، في المستوى المعجميّ، كثيرًا على الصّفة الاجتماعيّة للكلمات. فكلّ الصّراع الطّبقيّ يمكن أن يتلخّص في الصّراع من أجل كلمة. وهذا الكلام يبيّن إلى أيّ مدى يمكن للوحدات المعجميّة أن تحمل خاتم المصالح أو الصّراعات الاجتماعيّة.[24]

الحقل المعجميّ للسّلفيّة الدّينيّة:

انتقام، الجهاد، فريضة، قتل، تكفير، السّبّ، الملحدين، تنويم مغناطيسيّ، اللّعن، النّفاق، التّناقض، السّلفيّة السّلفيّين، إرهابيّ، ظلاميّ، القتلة، غسل دماغ، المجذوب، المجاذيب، القطيع، المتطرّفة، جيوش الظّلام، تهاجم، حروب روحيّة، الخراب، الظّلمات، الظّلمات الطّويلة، الهزيمة، التّربية الدّينيّة، شجارات، صراعات، تصلّي، ركعات صلاة، نقاب طالباني أسود كثيف، داعية ظلاميّة، الدّاعيات الدّنيّات، فشل، التّفجيرات الإرهابيّة، تنظيم القاعدة، مهام سلفيّة نضاليّة، آية الحقّ والإيمان، دولة الخلافة والإسلام، المتنكّرة، اللّه، أمة الرّحمن، المسيرة السّوداء، السّيل الأسود، شعارات ظلاميّة متطرّفة، الكفّار، الشّيخ، الإمام، ناشطة سلفيّة، الخطاب الفعّال المؤثّر، عداء شرس، صفحة الفيسبوك، الدّين، البؤس، التّخلّف، الحضيض، مسلم، مؤمن، مأساة، كافر، ملحد، عدوّ الله، إله تنظيم القاعدة والظّلاميّين، فتاوى متطرّفة، الأفكار الظّلاميّة، ضحيّة، انتفاضة ثائرة، المحرّمات، الكبت، الحوريّة مستنقع، غدر، أخطبوط ظلاميّ، الفاسق، ماذا أعمل؟ لم يرض، مش معقول، مستحيل، الممارسات الدّينيّة، قطيع شباب صغار، هاوية، تدريب ثوري، الطّاغية، الطّائفيّة، التّميز، القرآن، سفكوا دم، دمّروا حياتي، سمّموا دماغ، شيخ الله، الهادي، إلى الصّراط المستقيم، أبواب السّموات السّبع، دعواته، زعيم الظّلاميّين، ملهم الجهاديّين، غسيل

دماغ جذريّ ناجح إكسترا فعّال، تنويم مغناطيسي مستديم، الأوساط الفقيرة، الانتشار السّلفيّ، كبير الكفّار الشّيوعيّين، رضي الله عنه، غسيل دماغ دينيّ، نور الحقّ والإيمان، جارية، سيّد، الخوف، الطّاعة المطلقة، دين الإسلام الحنيف، العبيد، الحواري، يكره، يرفض،السّلف الصّالح، خطيب بليغ مؤثّر، التّمويه، كلّيّة الشّريعة، مناهج تدريسيّة ظلاميّة، الإعجاز القرآنيّ، عشق سريّ غريب، الطّاغوت، بلا وعي، عشق مغناطيسيّ غامض، نقاب حجاب، حضور كثيف للدّين، جلّادها الهارب، ملاءة ثقيلة، تخنق حياتنا، غيبيّاتنا، قائمة مجاذيبنا، تفاهاتنا الممنوعة، فتاوى فقهائنا، القبر، عذاب القبر، إخلاص دينيّ، خضوع دينيّ كليّ، النّعيم، أدعية دينيّة، آيات قرآنيّة، الجنس، الهمداني، العدم، تعليم ظلاميّ متخلّف، مدارس ذكور وإناث...

الحقل المعجميّ للعلمانيّة: الشّيوعيّين، العلمانيّين، العشق، مدنيّ، حرّيّة الضّمير والتّفكير، نضال، التّربية المدنيّة، حياة دنيويّة، خطاب التّنوير، النّور، الحوار، متحرّر من أغلال ثقافتنا، العلمانيّة، الاشتراكيّة، عامل يقود ثورة، بروليتاريا، طبقة عاملة، صفوة الكوادر، فلّاح

شرحهما "في إطار سياق اجتماعيّ-لغويّ".[27] في هذا المجال، لا بدّ من تصنيف المتشاكلات الدّلاليّة التّعارضيّة والاختلافيّة (= تكريريّة مصنّفات على امتداد سلسلة تعبيريّة لأصناف دلاليّة)، والّتي منها تتكوّن الشّيفرة الدّلاليّة للسّوسيولكتة .[28] وبالتّالي، تعيين موضوعات الخطاب الّذي يتّسم بطابع دينيّ حادّ ثوريّ، أوّل مدينة علمانيّة، اليمن الدّيموقراطيّ التّقدميّ، الحياة، الحياة الأولى، الذّات الأولى، الجذور، الحزب الاشتراكي، المدنيّة، الحداثة، سمة العصر، تعليم مختلط، ميني جوب، عصر الكهرباء والتّنكولوجيا، فلاديمير إيليتس أوليانوف، السّفر، الحب، الحلم، العالم الجديد، عالم العدالة والاشتراكيّة، عالم الإنسان الأعلى، إنسان نيتشه، الكينونة، التّشدّق الصّارخ وغير المهذّب بالدّين...

ثانيًا: في المستوى الدّلاليّ.

إنّ منظّرين على قدر من الاختلاف مثل "بيشو"، "شاف" (Shaff) و"هاليداي" (M. Halliday) أكّدوا مرارًا على فكرة أنّ المصالح والصّراعات الاجتماعيّة تظهر على الأخصّ على المستوى الدّلاليّ وأنّها تتخلّل الخطاب على المستوى الدّلاليّ[25]. كذلك "زيما" أكّد أنّ تجسيد المصالح الاجتماعيّة والجماعيّة في اللّغة يمكن تقديمه بشكل أوضح وأكثر تنظيمًا في مجال الدّلالة كما في مجال المفردات اللّغويّة.[26] وبنية رواية "ابنة سوسلوف" يتحكّم فيها تعارض عريض وثنائيّة صارمة على المستوى الدّلاليّ، من الواجب

أنتج تعارضًا أساسيًّا بين الذّات العلمانيّة، الحرّة، المستنيرة والمنفتحة على كلّ تطوّر مفيد للإنسان، والذّات المعادية، السّلفيّة، الدّمويّة الّتي هدمت الكينونة والأحلام.

وقد اندرجت هذه المتشاكلات تحت عنوانين عريضين، هما: العلمانيّة والسّلفيّة الدّينيّة.

العلمانيّة

- الشّيوعيّة، الاشتراكيّة، البروليتاريا
- الإلحاد الماركسيّ اللّينينيّ المدوي
- التّنوير
- التّربية المدنيّة

- فلاديمير إيليتس أوليانوف
- سوسلوف
- صفوة الكوادر، فلّاح ثوريّ، الطّبقة العاملة
- خيم السّيسبان (أوّل مدينة علمانيّة في التّاريخ)
- اليمن الدّيموقراطيّ، التّقدّميّ
- عدن الأمل، الجميلة، الحرّة
- باريس
- بلد الصّمت المطلق والذّكاء المطلق (الصّين)
- "سمة العصر"، المدنيّة الحداثة...
- الحياة الأولى، الذّات الأولى
- بداية
- الكينونة والحياة
- الحلم، العالم الجديد: عالم العدالة والأنوار: عالم "الإنسان الأعلى"
- نجاة ، فاتن
- الميني جوب
- عشق إنسانيّ صادق نظيف نقيّ
- عشق في المدن والسّاحات
- صوت شجيّ نديّ ضاحك عاشق
- السّفر، الحبّ
- الحبّ والشّفقة
- النّعيم، بروفات الفردوس
- التّعليم المختلط، عصر الكهرباء والتّكنولوجيا والإنسان الحديث
- الأمام
- ثورة
- بقاء

السّلفيّة الدّينيّة

- الدّين، الطّائفة والعقيدة، القاعدة وديها السّلفيّ الظّلاميّ والمتطرّف
- التّشدّق الصّارخ وغير المهذّب بالدّين
- الظّلاميّة
- التّربية الدّينيّة الظّلاميّة
- الهمدانيّ
- الإمام الهمدانيّ
- الجهاديّ، السّلفيّ، الإمام السّلفيّ
- مقصورات الحور العين على ضفاف نهر الكوثر
- اليمن الرّجعيّ، دولة الخلافة الإسلاميّة
- العاصمة الوغدة الجديدة، عدن المفقودة
- اليمن
- بلاد الضّجيج المطلق والغباء المطلق (البلاد العربيّة)
- تنظيم القاعدة، السّلفيّة، الرّجعيّة، القبليّة...
- الحياة الثّانية، إبادة الذّات
- نهاية
- العدم والموت (جحافل من معدومين، أنصاف موتى)
- عصر الظّلاميّة، قوى المال والبنوك والبورصات (اقتصاد السّوق = إله)
- هاوية / أمة الرّحمن
- النّقاب، الحجاب، الملاءة السّوداء
- عشق غامض مغشوش
- عشق الفئران، في الأقبية
- صوت متخشّب ضامر
- العبث، النّهب، الحرب، الفساد، الفقر، الفوضى والتّجويع
- الخوف والكره
- المستنقع، الجحيم
- مدارس ذكور وإناث، تعليم ظلاميّ متخلّف
- قندهار
- تنويم مغناطيسيّ
- هروب

وسوسيولكتة رواية "ابنة سوسلوف" لا تكتمل، على المستوى الدّلاليّ من دون الوقوف على ازدواجيّة قيميّة أساسيّة، واضحة المعالم ومحدّدة الوظيفة تولّد السّخريّة مع التّشكيك في معاني كلمات رئيسة وقيم مهمّة. وقد رأى "أندريه بروتون" (André Breton) أنّ أزمة القيم في المجتمع الحديث تتمظهر في جميع القيم الفكريّة المقموعة، جميع الأفكار الأخلاقيّة المنهزمة، في كلّ

خيرات الحياة وقد أصابها الفساد وتلاشت، في دنس المال غطّى كلّ شيء. ما يجعل بعض الكلمات تتّخذ معاني محلّيّة متناقضة، فتغدو مطّاطيّة لدرجة تحويلها إلى أيّ شيء وجعلها تعني العكس تمامًا لما تريد أن تعنيه.[29] وقد ساهمت قيمة السّوق، في هذه الرّواية في خلق هذه الازدواجيّة، إذ قال "عمران": " إنّنا في زمن جديد تتطاير فيه أطنان الدّولارات؛ تديره أكثر من أيّ وقت مضى قوى المال والبنوك والبورصات الّتي فرضت إلهها على البشريّة جمعاء: اقتصاد السّوق. الجميع يسبّح بحمده ويركع له، الجميع بلا استثناء". (ص 45)

كذلك الجنس، الّذي رآه "ألبرتو مورافيا" (Alberto Moravia) مثل المال، لا يبالي بقيم، بتمييزات أو مصداقيّات الثّقافة... كان له، في هذه الرّواية، دور في تعزيز هذه الازدواجيّة القيميّة الّتي أرخت بظلالها على الذّات فجعلتها ذاتين تعيشان التّناقض: فيترافق اللّحن الدّينيّ التّقليديّ الرّخيم مع كلام بذيء: "أيري بأمو من جدلنا" (ص9)، وتضرب الدّكتورة موعدًا جنسيًّا وقت صلاة الجمعة (ص 32). ويعيش الإمام السّلفيّ "عمر" في العلن، حياة الإمام الّذي يحضّ النّاس على الدّين السّلفيّ المتطرّف، وفي الخفاء "حياة دنيويّة محضة، خليلته قنّينة ويسكي من العيار الثّقيل". (ص 83)

و"أمة الرّحمن" أو "هاوية"، السّلفيّة الملتزمة، فقد كانت "مرتع كلّ التّناقضات المتلاطمة" (ص 106)، إذ أظهرت "تناقضًا في هيئتها مثيرًا جدًّا، مهرجان تناقض في الحقيقة" (ص 74)، وتحوّل سلوكها إلى انفصام واضح، فأضافت "عمران" "كتناقض جديد إلى حياتها يعالج كيمياء تناقضاتها القديمة... وضوضاء تناقضات حياتها، بمزيد من التّناقضات" (ص91، 204). لقد كانت أيضًا تعيش حياتين، واحدة في العلن تحارب فيها لأجل دينها السّلفيّ، وأخرى في الخفاء مع "عمران" تمارس الجنس "كطقس مقدّس" (ص 103) ... وتلبس الملاءة والـ "سترنج" (ص 84)، و"تزرزر حجابها المفصّل على جسدها والملتصق به بذكاء" (ص 73)، تنادي بالشّعارات الدّينيّة علنًا، فيما تسبّ كثيرًا تحت اسم مستعار على شبكات التّواصل الاجتماعي وفي عتمات الغرف المغلقة (ص 94)، تخرج من الحافلة بحجاب يلفّ حجابًا وحجابًا، فيما تمشي في شقّة عشيقها عارية (103)، ولا تقبل إلّا أن "تحيط سرير المضاجعة بالمرايا لتعاين فعل الجنس الّذي تمارسه مع عشيقها" (ص 100)، تتزوّج الإمام الابن علنًا، فيما تواصل عشقها السّرّيّ الغريب مع الإمام الأب (ص 146)، "تقيم بينها وبين الابن ميثاقًا ضمنيًّا مقدّسًا: لا تبوح لأحد بإدمانه، مقابل أن يسمح لها بقضاء السّاعات السّتّ كيفما تشاء دون أن يقضّ مضجعها لحظة واحدة" (ص 94)، "تغادر المجمع لمهام سلفيّة نضاليّة، لرفع آية الحقّ والإيمان لانتصار دولة الخلافة والإسلام" (ص 81) إلّا أنّها تقصد شقّة عشيقها "عمران" لتعيش معه ساعات من العشق والجنس...

و"عمران"، في أثناء علاقته بـ "هاوية" يعيش أيضًا حياتين: حياة في العلن ملؤها التّراجيديّات والبحث عن الحلم الضّائع، وفي الخفاء داخل الجدران، يعيش "حياته الثّانية الّتي رماه فيها قدر غادر" (ص 96)، فيغرق في بروفات الجنس الفردوسيّة مع السّلفيّة "هاوية"، بعد أن حوّلها من عدوّه الرّوحيّ إلى توأمه الجسديّ (ص 82) وأحبّها "برقّة وهمجيّة في الآن نفسه ... أحبّها وأشفق عليها، خافها وكرهها أيضًا..." (ص 86)، وراح "يهلوس هلوسات حزينة مضحكة" (ص 129)...

حتّى المكان تاه في غياهب الازدواجيّة والتّناقض، فمدينة "صنعاء" صارت مدينة "عاهرة تلبس نقابًا، تمارس البغاء وتدّعي

الفضيلة، كافرة تدّعي الإيمان، كلّ يوم تنتصب فيها مئذنة وشبكة دعارة"(ص 68)، يحصل فيها " كلّ ما يخطر ولا يخطر على بال... جلسات سكر وعربدات جماعيّة مغلقة، دعارات فاحشة يستقيم عند رؤيتها شعر الجنّ والعفاريت، ونفاق دينيّ صارخ تقهقه عند رؤيته الشّياطين... تحوّلت إلى مدينة يختفي داخلها مليون مدينة، يتنقّل الكبت والسّرّ في ساحتها من رقصة فالس إلى رقصة "برع" (رقص قبليّ). يتعانق فيها السّيل الشّفاف الرّقراق والمستنقع. تصبح حلبة صراع بين يرقة وقنفد... سمكة صغيرة تجثم عليها قبيلة أخطبوطات عملاقة... جوهرة بيد قرصان ومخاط داكن." (ص 71-72). هذه التّناقضات كلّها قادت صديق "عمران" إلى الخروج بالقاعدة الثّابتة "إنّ المدينة الّتي تكثر فيها المآذن هي مدينة تمارس البغاء سرًّا في الزّقاق المؤدّي إلى المسجد". (ص 69)

وهكذا، فإنّ تحقير اللّغة بهذا الشّكل، وجعل الكثير من الكلمات مزدوجة القيمة فارغة من معناها (Desemantisation)، قد أدّى إلى ضياع المعاني وتساوي القيم، ونشوء عالم عبثيّ[30] يحكمه الازدواج والانفصام والتّعدّد الصّوتيّ... فالعفّة والتّقوى والصّلاة صار معناها غريبًا، إذ تحوّلت إلى مجرّد نفاق ومراءاة، بحيث نلحظ أنّ تنظيم القاعدة عندما دخل إلى المجتمع اليمنيّ وحاول أن يفرض فكره وسلوكيّاته كان "يجلد وسط الشّارع من يشرب الخمر من البسطاء، فيما لم يغلق بارات المدينة ومصنع "بيرة صيرة" فقط لصالح ازدياد ثروة كبار العساكر والمسؤولين من بيع الخمور المهرّبة" (ص 63). وجلسات الإمام السّلفيّ "عمر"، بدلًا من أن تكون تأمّليّة فقهيّة بالدّين، أصبحت فقهيّة بالويسكي (ص97). والاشتراكيّة والأمميّة والبروليتاريّة والماركسيّة، شيء ولا شيء." (ص 26) يتحوّلون إلى "جحافل من معدومين، أنصاف موتى" (ص 90)، وحتّى الدّين، تحوّلت كلّها إلى لا شيء، إلى "مجرّد أقنعة يضعها أميّون ليسوا في العمق أكثر من قبائل همجيّة متخلّفة" (ص 56)، يتحوّلون منها وإليها بكلّ خفّة واستهتار ونفاق، فـ "سوسلوف" "الشّيوعيّ والمؤدلج الرّسميّ الّذي ما ملّ الحديث عن سمة العصر... ينقلب، بين ليلة وضحاها، من أقصى الإلحاد الماركسيّ اللّينينيّ المدوّي إلى أقصى التّظاهر الشّكليّ والتّشدّق الصّارخ وغير المهذّب بالدّين" (ص 65). كذلك كلمتا الحرّية والثّورة اجتمعتا مع الكذب والمراءاة، فغدا الشّعب الّذي تجمهر في السّاحة يطالب بالحرّيّة والتّغيير " أكبر منافق في الكون، فهو ابن من كان جمهوريًّا في الصّباح وملكيًّا في المساء" (ص 170). وتحوّل معنى كلمة ثورة، ليصبح عودة إلى "قندهار" بدلًا من أن يكون تقدّمًا إلى الأمام (ص 170، 173)، تحوّل إلى ما يمكن أن يكرهه "عمران"، هو الّذي يعتبر "الثّورة أنبل وأحلى وأقدس كلمات القاموس..." (ص 198). واجتمعت الأضداد لـ "تتضاجع في زقاق مظلم نتن رباعيّة: الجنس، الدّين، السّلطة، الثّورة." (ص 201)، حتّى كلمة الله باتت مزدوجة المعنى والمفاهيم: فـ "إله تنظيم القاعدة والسّلفيّين والإمام الهمداني مختلف عن إله الحلّاج وابن عربيّ وابي العلاء المعرّيّ، فـ "عمران" في عداء يوميّ مع الأوّل، غير أنّه يعشق الثّاني عشقًا" (ص 122)، والسّلفيّة أصابها الازدواج والتّناقض أيضًا، فكانت تستخدم الحداثة (الإنترنيت بمختلف صفحاتها ومواقعها ومنتدياتها وأحدث تقنيّاتها) إنّما بعبارات من عصور الأوّلين (ص 109).

هذه الازدواجيّة القيميّة جعلت "القرون السّحيقة تنفجر من الضّحك" (ص 110)، وحوّلت الحياة إلى مهزلة يحيا فيها النّاس "بالضّحك وفي الضّحك" (ص 25)، "يضحكون حتّى الثّمالة من كلّ

يمسون أكثر إرهاقًا من أن يريدوا فعلًا شيئًا ما، يكفيهم أن يكونوا على قيد الحياة (ص219)...

وجعلت الذّات تائهة، واقفة أمام الحياة عاجزة عن الإجابة عن الكثير من أسئلتها حتّى البسيط منها: فكلّ "ما حصل في حياة "عمران" يتجاوزه تمامًا، ولا يستوعب منه شيئًا" (ص 208)، فتراه يشجّع فرق الرّياضة والأحزاب (ص20) ولا يعرف لماذا. يفكّر في تعاقب المسيرات باختلاف أنواعها في اليمن من دون أن يصل إلى عبرة منها... يفكّر في الحياة، فيراها فاقدة لكلّ معنى وهدف (ص 209) يسأل نفسه: "أللحياة معنى، هدف ما؟ اتّجاه ومغزى معيّن؟... أم الحياة مجرّد مسرحيّة ألّفها مجانين، تُعرض في مستشفى مجانين؟" (ص 76)، أو "مسرحيّة عرائس" أبطالها "ملك الذّباب" "جنرال الذّباب" "إمام الذّباب" و"العصفور الصّغير" (ص 205)، ويذهب بعيدًا في تيهانه وعبثيّته، فيسأل من جديد: " أين أنا الآن؟ أين عشت وأعيش؟ ما الّذي ينتظر حياتنا في العقود القادمة؟" (ص 76)، وقد أفرحه أنّ حبيبته الأخيرة "يانليو" لم تسمع غير "هواينان زي"، فاستشهد بكلامه الّذي جعله مفرزًا وحده وسط الصّفحة: "نقفز من العدم إلى الكينونة، ومن الكينونة إلى العدم، دون أن تكون هناك نهاية أو بداية، لا يعرف أحد من أين نبت كزهرة". (ص 213)

لقد كان الخطاب، على المستوى المعجميّ والدّلاليّ متأرجحًا بين العلمانيّة والسّلفيّة الدّينيّة... تائهًا بين معان أُفرغت من معانيها، فشكّلت عالمًا عبثيًّا، ما تمكّنت فيه الذّات من فقه ما يحصل حولها، ولا حتّى مواجهته والتّغلّب عليه... فما هو الخطاب في المستوى النّحويّ؟ وما علاقته بالنّحو وبالنّموذج العامليّ الّذي أعدّه "غريماس"؟ إلى أي مدى تحدّد الثّنائيّات الدّلاليّة التّوزيع الفاعليّ Actantielle والمؤدّي للفعل Actorielle؟[31]

ثالثًا: في المستوى النّحويّ / السّرديّ.

إنّ المستوى النّحويّ المقصود هنا هو نحو القصّ أو النّحو العامليّ الّذي يكشف عن قواعد الخطاب القصصيّ وعن تبلور الصّراعات، وعن علاقات ممثّلي العوامل، وعن موضوعات الرّغبة، من خلال السّوسيولكتة الخاصّة بكلّ ممثّل عامليّ. وهذه القواعد تتمثّل بالنّموذج العامليّ والبرامج السّرديّة... وكذلك ببناء الدّلالة (= المربّع السّيميائيّ) وتعاضد المستويات: التّصويريّ والسّرديّ والموضوعاتيّ.[32]

- **المستوى التّصويريّ:**

(أ) تقطيع النّصّ إلى حلقات:

إنّ البنية السّرديّة لرواية "ابنة سوسلوف" لا تنفصل عن بنية الخطاب العلمانيّ-السّلفيّ الّذي يعيشه "عمران". وهي نشأت من الاصطدام العنيف بين الفكر العلمانيّ والفكر القاعديّ. ما جعل الرّواية تتوزّع إلى ثلاث حلقات سرديّة، تشكّل ثلاث قصص قصيرة تحتويها قصّة كبرى:

- الحلقة الأولى من الصّفحة 9 إلى الصّفحة 69، وهي حلقة الحلم بعالم علمانيّ جديد، بيمن ديموقراطيّ. هي حلقة العشق النّقيّ والزّواج وموت المعشوقة "نجاة" بتفجير إرهابيّ في مترو "باريس". و"نجاة" هي المرأة العلمانيّة الحرّة المنفتحة، الّتي مثّلت الحلم بالنّسبة إلى "عمران" ووجه اليمن الجديد...
- الحلقة الثّانية من الصّفحة 69 إلى الصّفحة 205، وهي حلقة انتشار الدّين السّلفيّ في اليمن، وبالتّالي، موت الحلم القديم. هي مرحلة العشق المغشوش، عشق الأقبية والفئران، عشق "عمران" للمرأة السّلفيّة "هاوية"، أو "أمة الرّحمن"، وفشل محاولته إعادتها إلى

الحياة الحرّة بعيدًا عن الأفكار الظّلاميّة المتطرّفة، وبالتّالي، فشل إعادة اليمن إلى زمن الانفتاح والتّنوير...

- الحلقة الثّالثة من الصّفحة 205 إلى الصّفحة 220، وهي حلقة العشق الجديد، الغريب، عشق الآخر المختلف، عشق المرأة الصّينيّة "ياناليو" العشيقة والزّوجة، وانتقال "عمران" إلى مكان آخر بعيد عن اليمن، ليعيش فيه الحلم الضّائع.

وقد يكون لافتًا للانتباه أنّ عدد الصّفحات الّتي تكلّمت على التّنوير تكاد لا تشكّل ثلث صفحات الرّواية، مقارنة بتلك الّتي سلّطت الضّوء على انتشار السّلفيّة في اليمن مع بعض تبعاتها.

أمّا الحكاية الكبرى الّتي بدأت منذ الصّفحة الأولى مخترقة ببنيتها الدّلاليّة الكبرى، وبرغبة عاملها الذّات "عمران"، المسار الجوهريّ للحلقات الثّلاث، وصولًا حتّى الصّفحة الأخيرة، فكانت حكاية ذات لاهثة نحو الانفتاح والحرّيّة والتّغيير، نحو العلمانيّة، نحو يمن ديموقراطيّ جديد، يمتثل بالحضارة الغربيّة الحديثة الّتي "منعت الدّين من التّدخّل في شؤون المدرسة والسّياسة والحياة العامّة" (ص 112). حكاية ذات تشهد على "انتصار السّلفيّة في اليمن بشكل استعراضيّ نهائيّ على الماركسيّة اللّينينيّة الّتي كانت تترنّح وتحتضر في الأساس بعد تراجيديا حرب يناير 1986" (ص 138-139)، كما على التّدهور القيميّ في المجتمع وعلى إلغاء الاستقلاليّة والمبادرة الفرديّة. حكاية ذات تشهد على ناسها يتمرّغون "في قعر البؤس والتّخلّف ويتقاتلون باسم الدّين منذ قرون يهرولون بلا توقّف نحو حضيض العالم، ضجيج هزائمهم المتتالية يصمّ الآذان" (ص 114). فيما هي تقف ضعيفة، عاجزة، تائهة، يائسة إلى حدّ سرد هذه الرّواية على مسامع مخاطَب غير عاديّ هو "عزرائيل" الّذي توجّه إليه "عمران" بأوصاف غريبة تحمل في طيّاتها الكثير من الازدواجيّة والتّناقض، وتؤكّد تيهان هذه الذّات وعبثيّتها:

"صديقي، عزيزي الغالي، نديمي الحبيب، نديمي الغالي، صديقي عزرائيل... # مفرّق الجماعات، هادم الملذّات، قابض الأرواح، لاطش الأرواح، ناهب الأرواح، منهي الملذّات، فاضح الأسرار، كاشف الأخبار، ملاك النّهايات، كاسر الأحلام والمسرّات..."

(ب) تشكّلات النّماذج في النّصّ:

يرى "زيما" أنّ "الصفة الإشكاليّة للبطل الرّوائيّ يمكن شرحها في ضوء واقع ثقافيّ فاسد وتدهور جميع القيم بفعل قوانين السّوق"[33] وأنّه ليس شخصًا موجودًا كما يرى إليه "غولدمان" (Lucien Goldmann)، إنّما هو عنصر يحمل سوسيولكتة خاصّة بالفئة الّتي ينتمي إليها متنازعة مع أخرى وأخرى في النّصّ الرّوائيّ.[34] وهكذا، يصبح "الشّكل الحواريّ الّذي يعتبره "باختين" كأحد الملامح المميّزة للرّواية"[35]، في نصّ "ابنة سولوف"، أداة هامّة لفاعلين فرديّين مقابل فاعلين جماعيّين، فتقف الـ "أنا" مقابل الـ "نحن". وتربض أسئلة من نحو "من أنا؟ من هو؟ أين الواقع؟ وأين الحقيقة؟" مكان أسئلة تقليديّة من نحو "ماذا سيفعل؟ وكيف ستكون ردود أفعالهم؟"

- "عمران" هو نموذج الإنسان العلمانيّ عاشق الثّورات والرّاغب في وطن جديد علمانيّ مترفّع عن النّفاق الدّينيّ. هو نموذج الإنسان الحالم بعالم

جديد يغرب فيه "عصر الرّأسماليّة واستغلال الإنسان... ويبدأ عالم العدالة والاشتراكيّة والأنوار، عالم "الإنسان الأعلى" إنسان "نيتشه" (Friedrich Nietzsche) في "جمهوريّة أرخبيل الكوكب الأزرق"" (ص 45). هو نموذج الإنسان الحالم إنّما المحبط والمستسلم للتّناقض، والعاجز عن الوصول إلى مبتغاه، ما جعله يعيش حالة من الاستلاب فينتقل، على الرّغم من علاقات العشق المتكرّرة والزّواج، إلى عالم آخر، وهميّ راح يحاور فيه عزرائيل ويفرغ أمامه كلّ مكنونات قلبه وتفاصيل أيّامه. وهذا ليس بغريب، إذ إنّ "الرواية الحديثة لطالما اتّسمت بهذا الاستلاب، أو الانشقاق بين الإنسان والعالم، بين الوعي والعالم في سياقه الاجتماعيّ".[36]

- "الهمدانيّ" هو نموذج من يستغلّ الدّين لتحقيق مآرب لم يستطع تحقيقها في حياته المدنيّة، "من أحيا الطّائفيّة والتّمييز ليستمرّ حكمه" (ص 186)، من "يجيد غسل الأدمغة، لا غير" (ص 142)، ويعمل على غسلها لضمّ أصحابها إلى قطيعه والتّحكّم في مسارهم والمصير... وما تكرار كلمات وعبارات مثل: "قطيع، تنويم مغناطيسيّ، غسيل دماغ، ماذا أعمل؟ لم يرض، إيش أسوّي ما رضاش، سمّموا دماغ، بلا وعي..." إلّا تأكيد على حالة الأسر والعبوديّة الّتي يضع فيها هذا الرّجل أتباعه.

- "نجاة" هي نموذج المرأة الحالمة بعالم جديد، يُسرق حلمها منها بعد أن تسقط ضحيّة تفجيرات إرهابيّة غادرة.

- "هاوية" نموذج من غُسل دماغه فتجنّد لخدمة المشروع الدّينيّ الظّلاميّ المتطرّف، "مشروع حياتها الكبير، وهو إعادة بناء دولة الخلافة الّتي تركها السّلف الصّالح أمانة" (ص 205)، وذلك في إطار من الازدواجيّة بين ما تظهره للآخر وما تعيشه في "أقبية العشق والجنس..." (ص 105). هي نموذج لمثيلات غيرها، هنّ مجرّد "عبدات سعيدات بعبوديّتهنّ تنقصهنّ الحاسّة الخامسة، أهمّ الحواسّ: حاسّة الحرّيّة." (ص 78)

- "ليونيل" هي نموذج الإنسان المتحرّر من أغلال الدّين ومتاهاته، العاملة بصمت وذكاء مطلقين كما شعبها الصّينيّ.

- **المستوى السّرديّ:**

يكشف مستوى الملفوظات، أي المستوى النّحويّ العامليّ عن تبلور الصّراعات وعن علاقات ممثّلي العوامل، وعن موضوعات الرّغبة الخاصّة بكلّ ممثّل عامليّ.

فقد سادت في اليمن أجواء متحرّرة من رَفْضٍ للتّربية الدّينيّة، وتبنٍّ للتّربية المدنيّة، إلى انتشار الفكر العلمانيّ وحضور أقوى للفكر الاشتراكيّ والشّيوعيّ، لدرجة أنّ "كتاب "بوليتزر" (Georges Politzer) "أصول الفلسفة الماركسيّة"، كان يباع في كلّ مكتبات عدن" (ص 25). وقد أدّت هذه الأجواء دور العامل المرسل الّذي جعل الرّاوي الكاتب "عمران" شابًّا مؤمنًا بالعلمانيّة وبقدرتها على إنقاذ مجتمعه من براثن الرّجعيّة والقبليّة... حالِمًا بيمن ديمقراطيّ جديد، تسوده العدالة والاشتراكيّة، عالم الأنوار والإنسان الأعلى. وقد زاده تمسّكًا بإيمانه هذا عشقه للفتاة

اليمنيّة "نجاة" الّتي شاركته حلمه وعملت معه على أمل تحقيقه. وقد توجّهت هذه الذّات برغبتها إلى الشّباب اليمنيّ بخاصّة والعربيّ بعامّة، علّه ينتفض ويثور على الرّجعيّة والدّيكتاتوريّة. إلّا أنّ "عمران" بقي في إطار ذات الحالة ولم يتمكّن من الانتقال إلى ذات الفعل بعد أن واجهته عوامل معاكسة كثيرة حالت دون تحقيقه الرّغبة/الحلم الّتي صبا إليها. فالحضور المزيّف والهشّ للشّيوعيّة والاشتراكيّة اليمنيّة وسقوطهما أمام اقتحام الفكر السّلفيّ الظّلاميّ للمجتمع اليمنيّ بمختلف أطيافه وطبقاته وانتشاره الواسع فيه وشراسته في الدّفاع عن عقيدته، وموت زوجته "نجاة"، شريكته في الحلم، في انفجار إرهابيّ، كلّها عوامل حالت دون تمكّن العامل الذّات من تحقيق موضوع رغبته. فلم يتمكّن "عمران" من رؤية اليمن بلدًا ديموقراطيًّا حديثًا متطوّرًا، يسير بأبنائه " في اتّجاه سمة العصر" (ص 50). ما حدا به إلى ترك بلاده والانتقال إلى الخارج، وتحديدًا إلى فرنسا حيث التقى بحبيبته الصّينيّة "ليونيل" وعاش معها بعضًا من حلمه إنّما في إطار مكانيّ آخر. وما انعدام وجود عوامل مساعدة إلّا تبرير لغياب الأمل في تحقّق الحلم في أرض العرب، في اليمن، وكأنّه حلم محظور على هذا المكان الّذي كُتب عليه وعلى أهله، بحسب الرّاوي، أن يكون "مختبرًا وحقل تجارب" (ص 76).

ويمكن تقديم التّرسيمة العامليّة في رواية "ابنة سوسلوف" على الشّكل التّالي:

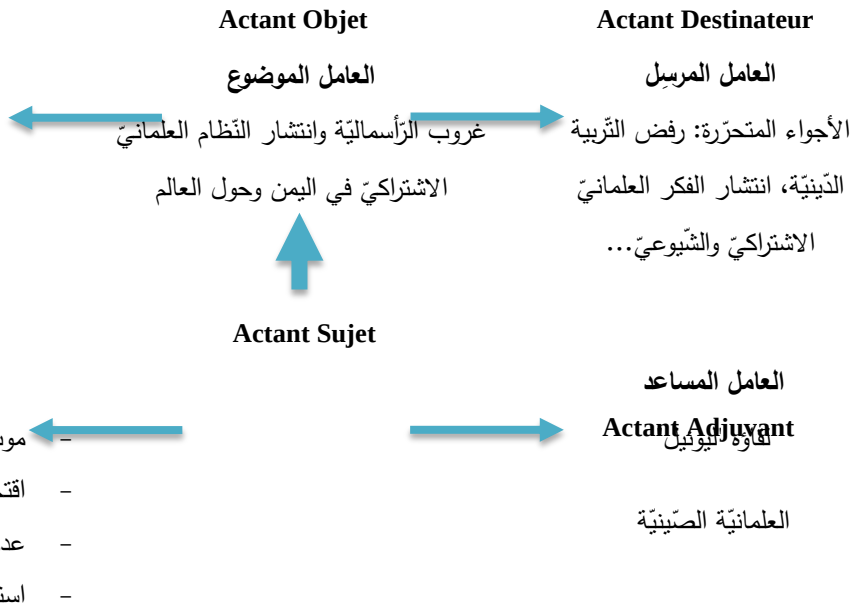

- **المستوى الموضوعاتيّ**

في هذا المستوى، لا بدّ من أن نسأل التّالي: كيف جرت الدّلالة في الرّواية؟ وما الّذي يقابلها في المستوى التّصويريّ الحسّيّ؟

إذا راقبنا المتعارضات، في هذه الرّواية، لاكتشفنا أنّ أبرزها ما يقدّمه نموذج الشّاب "عمران" لحبيباته، ومن خلالهنّ لشعبه، أي يقدّم الفكر العلمانيّ التّقدميّ، المنفتح والمتحرّر والمنطلق نحو سمة العصر والحداثة...

علمانيّة

لا سلفيّة

– عمران يعيش أجواء العلمانيّة وما رافقها من مدنيّة وحرّيّة وحداثة وانفتاح وعشق نقيّ مع نجاة في فرنسا...

– عمران يترك هاوية ويبتعد عن اليمن عائدًا

ثمّ ما يقدّمه نموذج الإمام "الهمدانيّ" لـ "هاوية" ولشعب بكامله، اي يقدّم الفكر السّلفيّ المنافق والمتطرّف والظّلاميّ والإجراميّ... وبهذا يرتسم عندنا المحور الدّلاليّ التّالي:

العلمانيّة ⟷ **السّلفيّة**

ويمكننا رسم المربّع السّيميائيّ الّذي يبرز الدّلالات التّجريديّة، عيانيًّا

علمانيّة ⟶ ⟵ **سلفيّة**

– عمران يعيش في يمن تسوده السّلفيّة الدّينيّة الظّلاميّة، مع كلّ ما رافقها من نفاق ودم وانتقام وعشق مغشوش لإحدى السّلفيّات... عاجزًا عن إصلاح

لا علمانيّة

– عمران، في بداية مرحلة الشّباب، عاش في يمن يحاول نشر الفكر الماركسيّ، إنّما فشل في ولوج هذا الفكر الّذي بدا عند أوّل اختبار

يرصد هذا المنظور مجرى الدّلالة في النّصّ. وعلى ما يلاحظ، فقد جرت الدّلالة الأولى من موقع اللّاعلمانيّة حيث تهيّأ للذّات، وللوهلة الأولى، أنّ العلمانيّة موجودة في اليمن، الّتي بتبنّيها يتشكّل اليمن الدّيموقراطيّ الّذي تصبو إليه الذّات أو "عمران". وقد تجسّدت على المستوى التّصويريّ بالتّفلّت من التّربية الدّينيّة والتّوجّه نحو التّربية المدنيّة الحديثة والمتحرّرة والمنفتحة على كلّ جديد ومتطوّر، بدءًا بالاطّلاع على الفلسفة (نيتشه وغيره)، وحضور التّكنولوجيا بمظاهرها المختلفة، مرورًا بالتّحرّر من المحرّم في الشّكل والملبس (الممارسات الجنسيّة، الميني جوب...)، وصولًا

إلى التّفلّت من التّقاليد الدّينيّة وانتشار المناضلين الماركسيّين اللّينينيّين لمدّة عقدين في اليمن، ما جعل "عمران" يعيش حلم التّغيير. لكن، وعند أوّل اختبار، (دخول الفكر السّلفيّ إلى اليمن) سقطت الأقنعة وظهرت هشاشة ما ظُنّ أنّه علمانيّة.

غير أنّ هذه الدّلالة انتقلت إلى موقع العلمانيّة، عندما عاشت الذّات "عمران" معاني الحريّة والمدنيّة والحداثة والانفتاح مع زوجته "نجاة" في فرنسا.

إلّا أنّ "نجاة"، وبعد فترة قصيرة، ماتت في تفجير إرهابيّ في فرنسا، فعاد "عمران" إلى اليمن، ليجده قد اتّحد شمالًا وجنوبًا وانتشرت فيه السّلفيّة الدّينيّة. وهكذا تحوّلت الدّلالة إلى التّطرّف والسّلفيّة اللّذين تجلّيا في اقتحام فكر القاعدة المجتمع اليمنيّ، محوّلًا شبابه وطليعيّيه إلى ظلاميّين من الطّراز الرّفيع، وزمنه إلى "زمن انتصار الخراب والظّلمات" (ص 21). وقد حاول "عمران"، في خضمّ هذه الموجة الظّلاميّة أن يواجه، أن يبيّن الحقّ فيعيد المسبيّين إلى مكانهم الصّحيح، وبخاصّة عشيقته "هاوية"، إلّا أنّه فشل. اندلعت ثورة فبراير في اليمن فنزل "عمران" إلى السّاحات حاملًا أحلامًا قديمة وفكرًا علمانيًّا متنوّرًا، إلّا أنّه اصطدم من جديد بالدّين الّذي يتربّع على عرش هذه الثّورة، فوجد نفسه أمام الفشل من جديد.

هذا الواقع المستجدّ دعاه إلى الخروج من اليمن/ المستنقع كما وصفه، وتركِه، وإغلاق صفحته على الفيسبوك إلى الأبد، منبر مقاومته المتواضعة، والعودة مجدّدًا إلى فرنسا حيث شعر بأنّ حياته "وصلت إلى مضيق وصار هو ناضجًا للموت" (ص 208)، ينتظره ويتحاور مع رئيسه ويبوح له بأوجاعه قبل أن يرحل في سفينة الموتى. إلّا أنّ الظّروف قادته إلى التّعرّف إلى "يانليو"، زميلته في مركز البحوث. وتطوّرت العلاقة بينهما بسبب إعجابه بفكرها المتحرّر، فتزوّجها وعاش معها بداية الطّريق نحو الحلم، إذ تعرّف إلى نوع من العلمانيّة، قد يكون هو العلمانيّة الحقيقيّة، وإلى نوع من البشر قد يكون هو الأقوى، قد يكون "اللّبوة الّتي تنظر إلى الصّراعات والحضارات المعجونة بالدّين شرقًا وغربًا، تنظر من أعلى جبل إلى ذئبين يتقاتلان في أسفل الوادي." (ص 213)

ختامًا، لقد حاول الرّاوي/الذّات أو "عمران" أن يضع الإصبع على جرح ما زال ينزّ منذ قرون في هذه الأرض الجريحة الطّيبة: إنّه جرح التّخبّط في مستنقع الدّين، خصوصًا ذاك المتطرّف الّذي "اخترق حياة البيئات الأميّة الفقيرة وأهالي الجبال الصّنعائيّة القبليّة المعزولة والبعيدة، وأولئك المدجّجون بأكبر الشّهادات العلميّة في الطّبّ وفي الماركسيّة اللّينينيّة"(ص 74) كأخته مثلًا. هذا الدّين الّذي يعتبر القتل سبيلًا لبلوغ الجنّة، و "الجهاد ضدّ الشّرك فضيلة" (ص 94)، والّذي يضمّ أتباعًا غُسلت أدمغتهم ونُوّموا مغناطيسيًّا، فغدوا إرهابيّين ظلاميّين مشعوذين .. "محاضراتهم منتشرة تُلهم كلّ القتلة لا سيّما المجاهدين الانفجاريّين" (ص 105-106)، "وموظّفين رسميّين في شبكات" (ص 109)، "يناضلون نضالًا رقميًّا كثيفًا بحضور سلفيّ جرّار في فضاء افتراضيّ مدنيّ وحرب روحيّة دائمة لا تقلّ شراسة عن الحرب العسكريّة التّقليديّة" (ص 109-110)... هذا الدّين الّذي يعيش "النّفاق الدّينيّ والتّناقضات الدّينيّة الصّارخة" (ص 98)، فيجعل الجنس عند السّلفيّات "طقسًا مقدّسًا يسمح لهنّ بالانتقام من كلّ المحرّمات، لأنّ في كلّ سلفيّة ينام ذئب

جائع للعشق" (ص 103)، يجعلها "ملزمة دينيًّا بأن تكون سبعين حوريّة عين في سرير واحد" (ص 125-126) ...

وهو، أي الرّاوي / الذّات، وإن حاول تشخيص الدّاء بـ "مخاطر خروج الدّين من المسجد إلى الشّارع" (ص 162)، وبهوس السّؤال الدّائم عن الدّين، هذا السّؤال الّذي كان، بالنّسبة إليه، "كالسّؤال عن فصيلة الدّم، سؤال شخصيّ من بلاغة القرون الوسطى ولا محلّ له في فضاءات المدنيّة العامّة" (ص 119)، إلّا أنّه قدّم الدّواء، دواء آتيًا من "بلاد الصّمت المطلق والذّكاء المطلق" (ص 211)، من الحضارة الآسيويّة، من الصّين، بعد أن خذلته بلاد الغرب. فكان النّظام العلمانيّ الاشتراكيّ الشّيوعيّ البعيد كلّ البعد عن الدّين هو العلاج الشّافي. لذا، رأينا أنّ ما أمتعه كثيرًا هو أن تكون حبيبته الأخيرة "ليونيل" "لا تعرف شيئًا عن الملاءة الثّقيلة الّتي تخنق حياتنا ويستحيل التّنفّس داخلها: الميتافيزيقيا. وأنّ كلّ غيبيّاتنا وقائمة مجاذيبنا وتفّاحاتنا الممنوعة وصلوات استسقائنا وصلوات استثلاجنا وفتاوى فقهائنا... مفاهيم لم تسمع عنها، مثلها مثل أكثر من مليار صينيّ تقريبًا" (ص 212-213).

نعم، لقد كان الخطاب الدّينيّ في رواية "ابنة سوسلوف"، هو الخطاب الرّئيس. وقد تمظهر في حالة صراعيّة بين العلمانيّة والسّلفيّة أو فكر القاعدة المتطرّف، وتجسّدت فيه القضايا والمصالح الجماعيّة، وذلك في المستويات المعجميّة والدّلاليّة والتّركيبيّة أو السّرديّة لنصّ الرّواية هذه. ما أدّى إلى وصف "وضع اجتماعيّ-لغويّ" لزمن محدّد من تاريخ اليمن، رآه الرّاوي زمنًا مشؤومًا، مسلوب الإرادة، تائهًا، متخبّطًا... ورأى نفسه عاجزًا عن تغييره، فهرب منه.

لقد صرّح الرّاوي، في متن الرّواية، بأنّه كان حائرًا بين عنوانين: "إيش أسوّي، ما رضاش"، عبارة "هاوية"، الّتي تعني: ماذا أفعل، لا يرضى الإمام الهمداني، وبين العنوان "ابنة سوسلوف". غير أنّ، في العنوانين، كمّ هائل من الاستسلام والعبثيّة، واستعباد الدّين السّلفيّ المتطرّف للإنسان، وقدرته على تحويله والانحدار به إلى أسفل المستويات... فيهما وجع الإنسان المتحرّر لرؤيته أخاه في المواطنة ينحدر من الحريّة إلى العبوديّة، يتقهقر إلى الوراء بدلًا من التّقدّم إلى الأمام... ابنة سوسلوف، أو " فاتن " هي اليمن الدّيموقراطيّ الجميل، الّتي حوّلها التّطرّف الدّينيّ إلى "هاوية"، إلى "أمة الرّحمن"، فانحدرت هي واليمن في هاوية سحيقة مظلمة، يعشّش فيها دين فاسد خرّب عقول النّاس... وغابا معًا في غياهب الجهل والمجهول... فيما هربت الذّات (عمران) المتمسّكة بذاتها الأولى، النّقيّة والسّاعية إلى الحقّ والحقيقة، إلى الآخر، إنسانًا ومكانًا، الآخر الجديد والمختلف، بعد أن يئست من المواجهة والتّغيير في مكانها الأوّل، في يمنها الحبيب... وكأنّ هذه الأرض، بما تحمله من مقوّمات، لن تعرف الخلاص، وسيبقى الدّين، وخصوصًا ذاك السّلفيّ المتطرّف، محكمًا بقبضته عليها، يستنزف ما فيها من حياة حتّى النّهاية...

المصادر

- عبد الرّبّ سروري، حبيب. إبنة سوسلوف. بيروت، لبنان: دار السّاقي، 2014، ط1

المراجع

- أيّوب، نبيل. نصّ القارئ المختلف (2) وسيميائيّة الخطاب النّقديّ. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، 2011، ط1.
- أيّوب، نبيل. النّقد النّصّيّ (2) وتحليل الخطاب. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، 2011، ط1.
- زيتوني، لطيف. معجم مصطلحات نقد الرّواية. بيروت، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون – دار النّهار للنّشر، 2002، ط1.

- زيما، بيير. النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ترجمة عايدة لطفي. القاهرة: دار الفكر للدّراسات والنّشر والتّوزيع، 1991، ط1.
- حروب الأديان وسلامها: سلسلة الشّأن العام في قضايا النّاس. وقائع المؤتمر السّابع والثّلاثين.

- الهوامش:

- [1]- معجم مصطلحات نقد الرّواية.
- 2- نصّ القارئ المختلف (2) وسيميائيّة الخطاب النّقديّ. ص 93
- 3 Manuel de Sociocritique. P 155
- 4 Manuel de Sociocritique. P 184
- 5- معجم مصطلحات نقد الرّواية. ص 89
- 6- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص231
- 7- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 94
- 8- نصّ القارئ المختلف. ص 103
- 9- نصّ القارئ المختلف. ص 98
- 10- نصّ القارئ المختلف. ص 105
- 11- نصّ القارئ المختلف. ص 105
- 12- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 31-33
- 13- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 52
- 14 - النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 172
- 15- نصّ القارئ المختلف. ص 97
- 16- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 176
- 17- نصّ القارئ المختلف. ص 100
- 18- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 187
- 19- نصّ القارئ المختلف. ص 93
- 20- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 196
- 21- نصّ القارئ المختلف. ص 100
- 22- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 204
- 23- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 74
- 24- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 177
- 25- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 226
- 26 - النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 177
- 27- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 230
- 28- نصّ القارئ المختلف. ص 101
- 29- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 211-212
- 30- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 213، 215
- 31- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 181-182
- 32- نصّ القارئ المختلف. ص 102، 127
- 33- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 146
- 34- نصّ القارئ المختلف. ص 97
- 35- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 206
- 36- النّقد الاجتماعيّ- نحو علم اجتماع للنّصّ الأدبيّ. ص 144

زوق مصبح، لبنان: منشورات جامعة سيّدة اللّويزة، 2004.

- Zima, Pierre V. Manuel de Sociocritique. France: L'Harmattan, Premiere Edition, 2000